السيّاب والموت

بقلم سامي مهدي

الموت مشكلة معقدة في حياة الانسان ، بل هو اكثر مشاكله تعقيدا ، لانه الخاتمة المفجعة لحياته والنهاية الجبرية التي لا مهرب له منها .

لقد اضنى هذا الانسان ـ منذ القدم ـ بحثه عن حل ايجابي لهذه المشكلة الازلية ، وضاع عبثا سعيه من اجل التوصل الى « سر الخلود » وايجاد « اكسير الحياة » . فكل ما تخلف عن هذا السعي حكايا عن الخلود والخالدين تضمنتها اساطيره ، وتقدم ـ عرضي ـ في معارفه الكيمياوية ، وبعض المخلفات الاثارية التي تفصح عن تطلعاته في هذا المجال . اما الحل الايجابي للمشكلة فقد بقي مستعصيا عليه الى الحد الذي اشعره بالعجز التام ، وصرفه الى البحث عن حلول اخرى وقناعات لا تنهي المشكلة ، ولكنها تهون من وطاتها القاسية . ومن ابرز هذه الحلول الحل الديني الذي يؤكد بان الموت مشكلة لابد منها ، وان خير وسيلة لمجابهتها هي الاستسلام والرضى ،والاستعداد ـ بعمل الخير ـ لحياة افضل وابقى .

غير ان الاحساس الفاجع بالموت ظل يلازم الانسان ، بحيث يندر ان يجد لنفسه تبريرا يرتاح اليه ، لان مثل هذا التبرير ـ مهما كان منطلقه ـ يحتاج الى اقتناع تام بالتبرير ذاته وايمان صوفي بالمنطلق ، او يحتاج الى ياس شديد من الحياة بُحيث تتساوى قيمتا الحياة والموت لدى الانسان .

والشعراء ـ كما هو معروف ـ اشد الناس احساسا بالفجيعة ، وبالتالي اعمقهم تاثرا بماساة الموت ، وبخاصة اولئك الذين لازمهم ـ لهذا السبب او ذاك ـ شعور بقرب المنية . فعند هؤلاء عبر الخوف من الموت عن نفسه باشكال طريفة . عند « كيتس » مثلا ، عبر عن نفسه بعشق الموت ، وعند « الشابي » كان الموت قيمة جمالية يتغنى بها تغنيه بالقيم الجمالية الاخرى (١) ، حتى ليبدو ان هذين الشاعرين ارادا اشعار الموت باللفة والصداقة . لقد مات هذان الشاعران بمرض السل وهما في ريعان الشباب ، وكان شعورهما بقربه منهما قد الف بينهما وبينه . وفي رايي ان هذه الالفة مبعثها الخوف منه لا الحب . ولذلك نلاحظ عند ذكرهما له في شعرهما جوا من الجلال والخشوع يذكرنا باجواء المعابد . افلا يدل عشق كيتس للموت«المريح» على خوف من الموت ، ووصفه له بـ « العمق » على خشية منه ؟ وافلا يشير الجو الجمالي الذي يخلقه الشابي حول قبره في قصيدة «النبي المجهول » على جزع من حقيقة الموت الداكنة ؟ لقد عبرت « نازك الملائكة » عن مثل هذا الموقف تعبيرا صريحا في مقدمة « ثلاث مراث لامي » (٢) ، فهي لم تجد لالمها الذي سببه موت امها منفذا غير ان تحبه وتغني له .

وطبعا ليس لكل الشعراء مثل هذا الموقف الطريف . فالموت عند لوركا مثلا يمتزج بالعنف والحركة الوحشية،والدم والالوان الصارخة(٣).

وقد مات هو نفسه على هذا النحو ، اذ قتل على ايدي الجلادين في اسبانيا . وعند ناظم حكمت يرتبط مفهوم الموت بالحرية ، وكذلك الامر عند عبد الوهاب البياتي ، وان معظم ابطال البياتي يموتون من اجل الحرية ، وهو نفسه توقع ان يموت مثل هذه الميتة (٤) . اما اليوت فانه يقرن مشكلة الموت بمشكلة الزمن وعزلة الانسان المريرة في حضارتنا الحديثة (٥) التي ينظر اليها هذا الشاعر نظرته المعروفة في الارض الخراب و « الرجال الجوف » وغيرهما من القصائد الذائعة الصيت .

اما السياب فان موقفه من الموت يختلف عن مواقف كل هؤلاء . ان موقفه فريد حقا . كان السياب يشعر دائما بقرب منيته ، وكان هذا الشعور يعذبه كثيرا وينغص عليه حياته حتى ولد لديه عقدة نفسية فظيعة . فبينما يؤكد اصاقاؤه (٦) بانه لم يكن في يوم ما مصابا بالسل ، نجد السياب يخالفهم ويدعي اصابته بهذا المرض في قصيدة « رئة تتمزق» (٧) ويؤكد هذا الادعاء في مقدمة ديوانه الثاني «اساطير». لقد كان مصابا بعقدة الموت ، ان صح التعبير . ولربما كانت هذه العقدة سببا في ارهاق اعصابه ، هذا الارهاق الذي افضى به الى الشلل في ما بعد .

وعلى اية حال ، وسواء كان السياب مريضا بالسل ام لا ، فانه كان يشعر بانه لن يعيش طويلا . وكان يردد بكثرة « سوف امضي ... سوف امضي » حتى كان الحياة كانت عنده كما هي عند هيدجر : مسير نحو الموت لا رجعةمنه . وقد تاكد لديه هذا الشعور ، وتحول الى « وثوق » منذ ان اصيب بالشلل ، اذ وجد نفسه لسنين ينتقل من مستشفى الى مستشفى على نقالة ، فان تحسن فعلى عصا ، عصا لا تلتهم الافاعي كعصا موسى ، بل تطرح لحمه لها لتنهشه على شكل نقد وادعاء عقيدة ! على ان تحسنه ما كان ليطول ، فقد كان المرض يصعد شيئا فشيئا من قدميهالى اقسام جسمه العليا . فكيف لا يكون ـ اذن ـ واثقا من موته ؟ لقد كان واثقا الى الحد الذي جعله يكتب الوصايا ويتدبر امر الرثاء ويستعجل تحضير الشاهدة (٨) .

ومثل هذا الوثوق يعني ان السياب كان يعيش مع الموت في كل حين . وبالفعل ، فان من النادر ان نجد قصيدة من قصائده التي نظمها في فترة مرضه تخلو من ذكر للموت ، حتى اننا لنستطيع ان نتصور شكل ذلك الموت الذي كان يهدده في كل وقت . ففي كل قصيدة من هذه القصائد نجد شيئا من ملامحه واوصافه . ولا اظن ان هناك شاعرا سبق السياب الى مثل هذا ، فحتى كيتس لم يبلغ ما بلغه .

الا ان هذا لم يولد لديه ما ولده لدى كيتس والشابي من الفة بينهما وبين الموت ، بل ولد لديه حبا شديدا للحياة وتشبثا قويا بها ، الى حد جعله يتجاوز اراءه السياسية ، ويمدح الطاغية عبد الكريم

---

(١) اقرا بحث نازك الملائكة « الشعر والموت » الاداب ـ العدد السابع ـ السنة الثانية

(٢) قرارة الموجة نازك الملائكة

(٣) اقرأ مثلا « اغنية الهائمة في الليل » في «لوركا قيثارة غرناطة» ترجمة كاظم جواد وسلافة حجاوي .

(٤) المقطع الاخير من قصيدة « الى غابرييل بيري » ـ المجد للاطفال والزيتون .

(٥) برنت نورتون (الرباعية الاولى) ـ الرباعيات الاربع ـ ت. س. اليوت .

(٦) ومنهم الاستاذ عبد الجبار محمود سكرتير « مجلة بغداد »

(٧) ديوان اساطير .

(٨) من قصائد السياب : الوصية ووصية محتضر والشاهدة .

قاسم ليحصل منه على مال يستعين بهفي معالجة مرضه . فمنذ قصيدة « رئة تتمزق » وهو يصرخ بحرقة :

واحسرتا ! اكذا اموت ؟ كما يجف ندى الصباح ؟!

ان الموت عند السياب فاجعة قاسية تحرمه ممن يحب : وطنا واطفالا وزوجة وحبيبة ، وتحرمه ايضا من متع الحياة التي لم ينل منها الا قليل القليل . بل تحرمه من الحياة نفسها التي طالما عزت عليه فالى « رغم وحش الداء والالام والارق ، ورغم الفقر ان يحيا (٩) » . ولذلك كان يخاف الموت ،كان يخافه في كل شكل ظهر به له . وكيف لا يخافه وقد عايش رعبه سنوات عديدة ؟ ان الموت لم يكن بالنسبة له غفوة هادئة ، او نهاية مفاجئة لا تترك فرصة للتألم والخوف ، بل كان جلادا يعذب طويلا قبل ان يغتال . لقد كان السياب يراه في المباضع التي تقص لحمه ، والقناني التي تشرب دمه . كان يراه في كل نقالة ، وفي كل مريض يموت بالقرب منه :

اخاف من ضبابة صفراء
تنبع من دمائي
تلفني فما ارى على المدى سواها
اكاد من ذلك لا اراها ،
يقص جسمي الذليل مبضع
كانه يقص طينة بدون ماء
ولا احس غير هبة من النسيم ترفع
من طرف الستائر الضباب
ليقطر الظلام ، لست اسمع
سوى رعود رن في اليباب
منها صدى وذاب في الهواء ...
اخاف من ضبابة صفراء (١٠) !

ان موت السياب يختلف عن الموت المفاجىء الذي يخافه احمد عبد المعطي حجازي (١١) . فالموت المفاجىء موت مطلق لا يقبل الصفات الحسية ، وكل ما يخيف فيه الغربة ان حدث فيها ، وبالاخص غربة المدينة التي يتحول فيها الانسان الى مجرد رقم ضائع . اما موت السياب فيكاد يكون موتا مجسدا لكثرة ما عايشه واسبغ علية من الملامح والاوصاف . ان موت السياب موت مخيف ، لا لانه قاس فقط ، بل لان صورته مخيفة ايضا . اضف الى ذلك انه دائم التهديد . ولا يأتي الا بعد ان يعذب . ولهذا فان المبتلي به يكون كمن حكم عليه بالاعدام وظل يتصور هول تنفيذ الحكم فيه .

غير ان خوف السياب من موته اخذ يخف عندما اصبح موته وشيكا، وذلك ليأسه نهائيا من الحياة ولسأمه من الخوف نفسه . وقد تحول جزء كبير من هذا الخوف الى استسلام في اخر ايامه ، ولكنه استسلام المكرهين . ففي قصيدة «المعول الحجري» قال :

ويا مرضي قناع الموت انت وهل ترى لو اسفر الموت
اخاف ؟ الا دع التكشيرة الصفراء والثقبين
حيث امتصت العينين
جحافل من جيوش الدود يجثم حولها الصمت
تلوح لناظري ودع الدماء تمسح من انفي من الثقبين
فاين ابي وامي اين جدي اين آبائي
لقد كتبوا اساميهم على الماء
ولست براغب حتى بخط اسمي على الماء

لقد احس السياب بان الحياة ترفضه وتقطع صلاتها به شيئا فشيئا ، وتدفع كل شيء الى محاصرته . ولشدة احساسه بهذا الرفض، اخذ يرى حتى في وجه زوجته « الوفية » الصابرة ، علائم « الاشفاق » و « النفاق » (١٢) . لهذا تحول خوفه الى استسلام .

على ان خوفه ــ وحتى استسلامه في ما بعد ــ لم يتركه مذهولا مأخوذا . فوثوق السياب بمنيته القريبة ، وكثرة انشغاله بالموت وقصوره له جعلاه يحاول تقويمه . غير ان هذا التقويم لم يكن تقويم مفتون بالموت يحسبه كيتس « مكافأة كبرى للحياة » ولا تقويم متأمل مستغرق كاليوت في « برنت نورتون » حين غاص في اعماق الاشياء فاذا لكل شيء بعد فلسفي عميق . ان تقويم السياب لم يكن كهذا او ذاك ، بل كان مبنيا على تجربته الفردية البحتة وعلى الاثار الظاهرية للموت فحسب . وقد جاء في شكل ملاحظات عابرة وردت خلال تصويره لاحتضاره البطيء ، بعضها ضمن نصوص مباشرة وبعضها الاخر ضمن نصوص غير مباشرة .

ونفيد من بعض النصوص المباشرة ان الموت عند السياب حقيقة خالدة . فهو « ابقى واخلد من كل ما في الحياة » (١٣) . بل هو «باق بقاء الله يكتب باسمه الاجال ، وما لسواه عند مطارق الاجال من حرمة» (١٤) . ومن عدد من النصوص غير المباشرة نفيد بان الموت عنده سكون كلي وعري مطلق ونهاية لكل النهايات . ويمكن ان نلاحظ هذا ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ في قصائد : الشاهدة ،واسمعه يبكي ، ونداء الموت (١٥) .

ان مثل هذا التقويم يشير الى مدى طغيان الموت على شخصية السياب ، ومدى احساسه بالضآلة والانسحاق امامه . لقد كان الموت شيئا ضخما عملاقا بالنسبة اليه ، شيئا لا يقوى على مواجهته رغم ما في نفسه من امل بالحياة وحب لها، ورغم صبره الطويل وتشبثه القوي بمعونة الله .

وقد ذهب الى ابعد من هذا التقويم ، حين تساءل في قصيدة « الوصية » (١٦) عما اذا كان الموت غاية الحياة ، لا سيما وان تساؤله حمل من الاقتناع اكثر مما حمل من الاستفسار . انه تضمن ــ في الواقع ــ الجواب بالايجاب . فقد نظر السياب الى الحياة فاذا كل شيء فيها آيل الى الموت ومنته به ،افليس الموت ــ بعد هذا ــ غاية الحياة؟

اكل ذاك الانس ، تلك الشقوه
والطمع الحافر في الضمير
والامل الخالق من توثب الصغير
الف ابي زيد تفور الرغوه
من خيله الحمراء كالهجير
اكلها لهذه الغاية ؟
ترى الحمام للحياة غايه ؟

فاذا كان الموت غاية الحياة ، فان الحياة ــ على هذا الاساس ــ تتضمن رغم هذه الغائية معنى عبثيا ، ان لم تكن هي العبث عينه . ويتركز هذا المعنى العبثي اكثر فاكثر في قصيدته الاخيرة « المعول الحجري » فقد اصبح العبث هو النتيجة التي توصل اليها بعد ثمانية وثلاثين عاما من الحياة . اذ قال وهو يحس بالموت الوشيك :

فاين ابي وامي اين جدي اين آبائي
لقد كتبوا اساميهم على الماء
ولست براغب حتى بخط اسمي على الماء

فهل هناك اكثر عبثية من حياة ليست سوى كتابة اسم على ماء ؟! ان مثل هذه الحياة لا تستحق ان تعاش ، فهو لا يرغب حتى في كتابة اسمه على الماء ، كما يقول .

وليس من شك في أن هذا الاحساس بالذات هو الذي دفعه الى

(٩) قصيدة المعول الحجري ــ العاملون في النفط ــ شباط ١٩٦٥ ــ العدد ٣٦ .

(١٠) قصيدة الوصية ــ المعبد الغريق .

(١١) قصيدة الموت فجأة ــ لم يبق الا الاعتراف ــ احمد عبد المعطي حجازي .

(١٢) قصيدتا « احبيني » و «ليلة وداع» ــ شناشيل ابنة الجلبي .

(١٣) قصيدة نداء الموت ــ منزل الاقنان .

(١٤) قصيدة الوصية ــ المعبد الغريق .

(١٥) منزل الاقنان .

(١٦) المعبد الغريق .

طلب الموت في قصيدة « امام باب الله » (١٧) . ففي هـذه القصيدة يظهر لنا السياب مخذولا هزمته الحياة وهدته صروفها ، فتعب منها وما عاد يحياها ، بل « يتصنعها » حتى تعب من التصنع ايضا ، وراح يصرخ « اريد ان اموت يا اله ! » .

ولكن ان يتعب الانسا نمن الحياة ويحس بلا جدواها فيريد الموت شيء ، وان يشرع بالموت ـ او على الاصح بالانتحار ـ شيء اخر.صحيح ان السياب سئم الحياة ، ولكنه لم يسأم الا الحياة التعسة ، حياة المرض والفقر والالم . اما الحياة السوية ـ او الحياة العادية على الاقل ـ فقد كان السياب يحبها . المتره يرجو الشفاء ويتوسل :

اعدني يا اله الشرق والصحراء والنخل
الى ايامي الحلوه
الى داري ، الى غيلان الثمه ، الى اهلي (١٨)

بل الم تره في قصيدة « قالو لايوب » (١٩) كيف يزدهر املهفي الشفاء والعودة ؟ لقد رمزلنفسه بايوب الذي ظل طريحا اطول مدة عرفها مريض حتى شفي . فهل مثل هذا الامل دليل على تشبث بالحياة عظيم ؟

ومن مظاهر هذا التشبث بالحياة ونتائجه توهج عاطفة السياب الدينية في ايام مرضه . لقد احس السياب بالعجز ازاء المرض،وافتقد المساعدة فلم يجد غير ان يطرق باب الله . فرب المعجزات ، الربالذي شفى ايوب بعد طول مرض،هو وحده القادر على شفائه . فلهذا حاول ان يدرع بالصبر ، فتمثل بايوب . ولهذا ايضا اخذ يندم على اخطائه وخطيئاته ، لعل الله يقبل التماسه . وما الامل الذي كان يراوده في الشفاء الا وليد هذه العاطفة التي جاشت في صدره .

وخير ماتبدو فيه هذه العاطفة الدينية ، قصائد ديوان « منزل الاقنان » . فحتى الرموز في هذا الديوان ذات طابع ديني ،وحتىالاحكام والمنطق الذي استندت اليه كانت دينية . فلنأخذ مثلا قوله :

لك الحمد مهما استطال البلاء
ومهما استبد الالم ،
لك الحمد ان الرزايا عطاء
وان المصيبات بعض الكرم (٢٠)

او قوله :

قالوا لايوب : « جفاك الاله ! »
فقال : « لا يجفو
من شد بالايمان لا قبضتاه
ترخي ولا اجفانه تغفو » .
قالوا له : « والداء من ذا رماه
في جسمك الواهي ومن ثبته ؟ »
قال : « هو التكفير عما جناه
قابيل والشاري سدى جنته » (٢١

فالاستسلام في المقطع الاول يتضمن قدرية دينية بحتة ، وقناعة صوفية واضحة . والحوار في المقطع الثاني لم يصدر الا عن خلفيةبينة من الشعور الديني ، حتى ليخيل اليان السياب كان يناجي ربهويتوسل اليه بادعيته الخاصة ويتقرب بالنذور والقرابين ، وهو ملقى علىسرير المرض . بل لقد فعل ذلك حين المت به احدى ازماته المرضية الشديدة وظن بانها الاخيرة . فيومها نذر نذرا لعلي بن ابي طالب ان هو اعانهعلى الافلات من هذه الازمة،فافلت واوفىبالنذر !

ولكن يلاحظ ان هذه العاطفة الدينية قد خبت مجددا في ديوانه الاخير « شناشيل ابنة الجلبي » . ولعل هذا يرجع الى يأسه التامن اي شفاء، واحساسه بان تشبثه بالله لم يجده شيئا، ولم ينجه منمرضه، اذ ان حالته الصحية كانت تسوء يوما بعد يوم والشلل يتمكن منه اكثر فاكثر .

وعلى العكس من ذلك حرك هذا اليأس في جوارحه نهما جنسيا لم نكن نعهده في شعره من قبل ، ولكننا اخذنا نلاحظه فيبعضقصائده المتأخرة . ويصح ان نعتبر هذا مظهرا اخر من مظاهر تشبثه بالحياة ، كما سنبين هذا في بحثاخر.

وغير هذا ايقظ له يأسه من الشفاء كثيرا من الذكريات المخزونة. ورغم ما في هذه الذكريات من حرمان والم ، صبها السياب في شعر زاخر باللهفة والحسرة ، اذ ان استرجاع الذكريات ـ في حقيقته ليس الا شكلا من اشكال التعلق بالحياة . والذكريات ـ على ما فيها منحلو ومر ـ تعز اكثر لدى المشرفين على الموت ، لانها تمثل حركة حياتهم وفاعليتها ، واسترجاعها ، وان كان يبعث على الاسف احيانا ، الا انه يريح ويدفيء الاطراف المقرورة بثلج الاحتضار . وهكذا كان الامر عند السياب الذي كان « يتراجع » على حد تعبير علماء النفس ، الىمراحل سابقة من حياته ليعيش فيها ويرتاح قليلا .

ان السياب انسان حساس الى حد المرض ، كما يقول بلند الحيدري . والانسان الحساس يمتاز بشدة انفعاله بالاحداث وقدرته الفائقة على التذكر . اما اذا كانت لهذا الانسان مثل درجة حساسية السياب ، واما اذا ظل مثله مطروحا على فراش الموت طيلة سنين يعاني الحزن والوحدة والهزيمة ، ففي هذه الحالة تكون قدرته على التذكر في ذروتها .

ان ذكريات السياب ذكريات خصبة وغنية ، الا انها مؤلمة لانها ذكريات الخيبة والحرمان . واشد ما تتجلى فيه خيبة السياب قصيدة « شناشيل ابنة الجلبي » (٢٢) حيث يقول :

ثلاثون انقضت ، وكبرت : كم حب وكم وجد
توهج في فؤادي !
غير اني كلما صفقت يدا الرعد
مددت الطرف ارقب : ربمائتلق الشناشيل
فابصرت ابنة الجلبي مقبلة الى وعدي
ولم ارها . هراء كل اشواقي ، اباطيل
ونبت دونما ثمر ولا ورد !

ان هذ ه الابيات التي افرزتها ذكرياته عن ابنة الجلبي تحمل فدي طياتها خلاصة لحيانه . تحمل تطلعه الى مرقى اعلى وفشله الى الوصول الى هذا المرقى . انها تمثل سعيه الى الانفلات من واقعه البائس من خلال الاستحواذ على ابنة الغني المتنفذ . وكم من فتاة غنية احبها السياب فتملصت منه ، وكممن فقيرة احبها فاستحوذ عليها غني !

لذلك يصح القول ان احداث ذكرياته التي وردت في هذه القصيدة ، او في غيرها من القصائد ، كانت احداثا رئيسية في حياته ، وكانت الهيكل الذي تتجمع حولهبقية التفصيلات . ومن هنا كان لها اثرها العميق على سلوكه وتفكيره ، لا لانها فرضت عليه نفسها ـ في ما بعد ـ كذكريات ، بل لانها في الاساس شكلت تكوينه النفسي المعقد .

والواقع ان السياب كان صريع مركبات نقص عديدة ، وقد حكمت نفسيته عقد كثيرة ، ابرزها : عقدة الفقر . لقد كان لهذه العقدة اثرها المباشر الخطير عليه ، اذ سببت له مركب نقص فظيع . فعلى ما يقول البعض انها هي التي دفعته الى العمل السياسي ، وهي التي تسببت في فشل اكثر من حب له ، وفي عجزه عن معالجة مرضه كما ينبغي . لهذا نراه منذ قصائده الاولى يلعن « المال » ويذكره كمشكلة من مشاكله . فالنقود عنده « شيطان المدينة » ولعنة الحضارة الحديثة ، ومالكها « كائن حارت البرية فيه » . وبقدر ما يتعلق الامر بعلاقة فقر السياب بموته ، فانه عندما اعتلت صحته واشتد به المرض زاد افتقاره الى المال من يأسه . فهو بلا امل لانه بلا مال . افما تراه يقول :

(١٧) المعبد الغريق .
(١٨) ليلة في لندن ـ شناشيل ابنة الجلبي .
(١٩) منزل الاقنان .
(٢٠) سفر ايوب ـ منزل الاقنان .
(٢١) قالوا لايوب ـ منزل الاقنان .
(٢٢) شناشيل ابنة الجلبي .

غريب غير نار الليل ما واساه من احد
بلا مال ، بلا امل ، يقطع قلبه اسفا

ويقول :

وما امل العليل لديك شح المال ثم رمته بالداء
سهام في يد الاقدار ترمي كل من عطفا
على المرضى ... الخ... (٢٣)

ان الموت والفقر قرينان في شعر السياب وتفكيره . فكلما فكر في مرضه ، فكر في فقره . وكلما طلب الشفاء اطل عليه غول الفقر . فافتقاره الى المال كان يدني منه شبح الموت ، اذ ان مرضه مرض عضال وتكاليف علاجه باهظة لا قدرة له على تحملها . وحتى المساعدة التي طأطأ جبينه من اجلها كانت شحيحة بخسة وكم كانت خيبته تشتد عندما كان يعد ما معه من النقود ، فقد كان يجأر :

ايشتري هذا القليل الشفاء ؟

ولكن احدا لم يسمعه ، بل لم ينصت له ، اذ عيف لوحده ، وهو الجدير بكل تبن واعانة .

ولكونه فقيرا فقد كان يخشى على اطفاله لا من اليتم وحده ، بل من الفقر ايضا . فهو اذا مات فلا خوف عليه ، اذ « لا مال في الموت، ولا فيه داء» (٢٤) كما يقول ، ولكن الخوف على اطفاله الذين لم يرثوا منه سوى شعر لم ينفع اباهم يوما ما . ولذلك لم يكن ينساهم حتى في احلك ساعاته ، بل كان يتذكرهم على الدوام ويتمنى الشفاء ليعود اليهم ذلك الاب المطعم الذي تنتظر عودته عند المساء (٢٥) . الا ان امله في الشفاء كان يخيب ، كلما طال به المرض واشتد ، فكان قلقه على حاضر اطفاله ومستقبلهم يزيد تبعا لذلك فيخاف عليهم من ذل الحاجة وتشفي المتشفين ، ويعذبه عطف العاطفين ولا يجد غير أن يتعجل الموت ليتخلص من قلقه وخوفه وعذابه فيصرخ في وجه « الموكل » بالجحيم :

لم تترك بابك مسدودا ؟؟
ولتدع شياطين النار
تقتص من الجسد الهاري
تقتص من الجرح العاري
ولتأت صقورك تفترس العينين وتنتهش القلبا
فهنا لا يشمت بي جاري
او تهتف عاهرة مرت من نصف الليل على داري :
« بيت المشلول هنا . امسى لا يملك اكلا او شربا
وسيرمون غدا بنتيه وزوجته دربا
وفتاه الطفل ، اذا لم يدفع متراكم ايجار »
انثرني ويك ابابيدا
وافتح بابك لا تتركه امام شقائي مسدودا
ولتطعم جسمي للنار (٢٦) !!

وبعد فقد مات السياب . مات وهو ينزف الشعر بغزارة عجيبة غير معهودة في من هم على مثل حالته . ولو كان الشعر يدفع المنايا لقلنا : ان السياب فعل ذلك ليدفع منيته عنه ، ولكن الشعر — باعتراف السياب نفسه — لا يمتلك هذه القدرة ، بل هو يستهلك الاعصاب ويرهقها . ولكن يبدو لي انه اراد من هذا النزف الشعري الغزير ان يسمع انينه للذين صكوا اذانهم وصدوا عنه ، او اراد ان ينفس عن الامه ويلتمس العزاء ، او ان يؤكد خلوده في عالم الشعر بعد ان عجز عن دفع الموت عنه ، اوان يطمئن نفسه بانه ما زال قادرا على مصارعة المرض وسيمتد به العمر ، بدليل انه لم يعجز عن قول الشعر رغم مرضه العضال . ولعله اراد كل ذلك مرة واحدة ! ومهما كان السبب في هذه الغزارة فانه لم يكن — باية حال — الاثبات للآتين من الاشقياء بان انسانا ما عاش قبلهم كان اشقى منهم ، كما ادعى في قصيدة «المعول الحجري».

ولكن هذا الشعر الذي صدر عن معاناة فردية للمرض والاحتضار لم ينحبس داخل حدود هذه المعاناة ، بل كان من الشمول بحيث يرتفع الى مستوى الموقف الانساني ازاء الموت ، لا لان الموت مشكلة انسانية عامة فحسب ، بل لصدق السياب وحرارة تعبيره عن تجربته الذاتية ايضا . ومما عمق انسانية هذا الشعر أن السياب لم يحصر المشكلة بينه وبين الموت ، بل ربط الى موقفه منه عائلته واحباءه ووطنه ايضا ، وذكرياته وحياته كلها . اضف الى ذلك أنه لم يقف من الموت موقفا شاذا ، بل موقفا عاديا يمكن ان يقفه اي انسان .

ان للسياب حساسية فائقة بكل ما هو مأساوي في الحياة ، وهو قبل كل شيء شاعر مرهف وانسان معذب بالغ العذاب ، حمل فوق هذا الم المرض العضال ومرارة الاحتضار البطيء . ومن هنا فان قضية الموت في شعره قد بلغت حظا لم تبلغه لدى اي شاعر عربي اخر من السابقين او المعاصرين . ان احدا من الشعراء العرب لم يسبق السياب في طرح هذه القضية بمثل هذا الالحاح وهذه الدراماتيكية . وان احدا من هؤلاء لم يسبقه في معايشة الموت شعريا كما عايشه ، ولم يجاره في التعبير عن الام المرض ومرارة الاحتضار كما عبر . واذا شئنا الحديث بمنطق نقدنا التقليدي فان السياب قد استحدث بابا جديدا من ابواب الشعر . ان المستشفيات والمباضع والنقالات والاسرة وقناني الدم والشلل والنزيف والانين والالم والوصية والكفن والقبر والشاهدة وغير ذلك.. ان كل هذا لم يسبق له ان اجتمع في مزيج شعري رائع مثلما اجتمع في شعر السياب ، حتى كانه وحده الذي عانى هذه المأساة معاناة حقيقية .

على اننا لا بد لنا ان نذكر اخيرا بان السياب هو الذي قرب الموت منه .. قربه اكثر مما فعل مرض الشلل ، وقد فعل ذلك رغم كرهه له وخوفه منه . لقد كان الرجل « يستهلك » نفسه ان صح استعمال هذه الكلمة الاقتصادية ، فكانت كل قواه تتآكل يوما بعد يوم . ان مثل دواوينه الثلاثة الاخيرة تستنفد طاقات نفسية وروحية غزيرة ، وتمتص شاعرها حتى الجفاف ، فكيف بشاعرنا وهو مريض بمرض عصبي شديد ؟! ان اساس العلاج في مرض كمرضه هو الراحة والصفاء والتفاؤل ، ولكن السياب لم يحاول ان يرتاح ويصفو ويتفاءل ، بل القى نفسه في العذاب والقلق والتشاؤم وزج بها زجا في بحور الالم . وهل الشاعر عنده سوى الالم (٢٧) ؟!

بغداد

سامي مهدي

(٢٣) منزل الاقنان — منزل الاقنان .
(٢٤) اسمعه يبكي — منزل الاقنان .
(٢٥) اقرأ قصيدة « يقولون تحيا » — شناشيل ابنة الجلبي .
(٢٦) قصيدة « عكاز في الجحيم » — جريدة «كل شيء» العراقية — العدد الصادر بتأريخ ٢٢ — ٢ — ١٩٦٥ .
(٢٧) قصيدة « ورم » — منزل الاقنان .

صدر حديثا ديوان :

مرفأ الذكريات
للشاعر هلال ناجي

يطلب من
دار الاندلس — بيروت
المكتبة العصرية — بغداد